الرحـلة الثالثة

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ الْمَاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

أَمَّا بَعْدُ :السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، حَيَّاكُمُ اللهُ وَبَيَّاكُمْ، وَسَدَّدَ خُطَاكُمْ، وَبَارَكَ مَسْعَاكُمْ، وَمِنْ كُلِّ خَيْرٍ حَبَاكُمْ، وَمِنْ كُلِّ شَرٍّ حَمَاكُمْ. يَا أَهْلَ السَّفِينَةِ الْمَاخِرَةِ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ، ارْكَبُوا فِيهَا، ﴿**بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ سورة هود، الآية 41.

خُذُوا أَمَاكِنَكُمْ، وَشُدُّوا عَلَيْكُمْ أَحْزِمَةَ الْجِدِّ وَالْحَزْمِ، وَاسْتَحْضِرُوا نِيَّةَ الطَّاعَةِ وَالْقُرْبَةِ إِلَى رَبِّكُمْ، وَأَخْلِصُوا للهِ أَعْمَالَكُمْ. اسْتَمْتِعُوا بِرِحْلَتِكُمْ هَذِهِ شَاكِرِينَ، حَامِدِينَ، مُسَبِّحِينَ، وَلِلثَّوَابِ سَاعِينَ، وَلِلْأَجْرِ طَالِبِينَ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ حِينٍ.

تَفَقَّدُوا أَمْتِعَتَكُمْ وَزَادَكُمْ، وَلْيَكُنْ تَقْوَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ فَإِنَّهُ خَيْرُ الزَّادِ. وَمُرَاقَبَةُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَالْخَوْفُ مِنْهُ، وَتَعْظِيمُهُ حَقَّ التَّعْظِيمِ، وَتَقْدِيرُهُ حَقَّ التَّقْدِيرِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

احْذَرُوا أَعْدَاءَكُمْ وَحَاسِدِيكُمْ، الْمُنَغِّصِينَ عَلَيْكُمْ، السَّاعِينَ جَاهِدِينَ لِإِفْسَادِ طَاعَاتِكُمْ لِرَبِّكُمْ، وَقَطْعِ طَرِيقِ السَّفَرِ عَلَيْكُمْ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ. وَاعْلَمُوا أَنَّ رُؤُوسَهُمْ أَرْبَعَةٌ :**الشَّيْطَانُ، وَالنَّفْسُ، وَالْهَوَى، وَالدُّنْيَا.**

اعْلَمْ -عَلَّمَنِي اللهُ وَإِيَّاكُمْ- أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ نُصَاحِبَ فِي سَفَرِنَا هَذَا مَنْ يُعِينُ، وَمَنْ نَنْتَفِعُ بِهِ فِي دِينِنَا وَدُنْيَانَا وَآخِرَتِنَا. وَالْعُلَمَاءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى- قَدِيمًا وَحَدِيثًا

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ الْمُاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

يَنْصَحُونَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ بِصُحْبَةِ "الْأَمْوَاتِ" مِنَ الصَّالِحِينَ، الَّذِينَ هُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءٌ؛ يُذَكَّرُونَ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالطَّاعَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. عَاشُوا فِي رِحَابِ التَّوْحِيدِ اعْتِقَادًا وَقَوْلًا وَعَمَلًا وَسُلُوكًا وَدَعْوَةً، وَمَاتُوا عَلَيْهِ، وَخَلَّفُوا بَعْدَهُمْ آثَارًا حَسَنَةً، وَسِيرَةً عَاطِرَةً، وَسَمْتًا قَوِيمًا، وَصِرَاطًا مُسْتَقِيمًا. فَاقْتَدُوا مِنْ بَعْدِهِمْ بِهِمْ، وَاتَّبِعُوا آثَارَهُمْ، وَاهْتَدُوا بِهَدْيِهِمْ.

إِذًا، وَجَبَ عَلَى كُلِّ مَنْ أَرَادَ السَّلَامَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْ يَتَأَسَّى بِهِمْ وَيَلْزَمَ غَرْزَهُمْ، كَمَا نَصَحَ بِذَلِكَ **عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- ابْنُ أُمِّ عَبْدٍ، أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْهُذَلِيُّ الْمَكِّيُّ الْمُهَاجِرِيُّ، أَحَدُ أَعْلَامِ الصَّحَابَةِ وَعُلَمَائِهِمْ وَقُرَّائِهِمْ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ فِي مَكَّةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وَهُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» :-**يَرْحَمُكَ اللهُ، إِنَّكَ غُلَيِّمٌ مُعَلَّمٌ** « (رواه الإمام أحمد في مسنده). وَهُوَ صَاحِبُ سِوَادِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَوِسَادِهِ وَسِوَاكِهِ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي وَصْفِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :(-**أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، وَأَقْوَمَهَا هَدْيًا، وَأَحْسَنَهَا حَالًا. قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَإِقَامَةِ دِينِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَسِيَرِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى طَرِيقِ الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ.)**

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ الْمَاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

وَجَاءَ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ أَيْضًا: **(مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا، فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ؛ فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ)** "رواه ابن بطة في الإبانة الكبرى، وذكره ابن القيم في إعلام الموقعين."

كَمَا لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ الْمُوَحِّدِ، السَّائِرِ إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، أَنْ يَصْحَبَ مَعَهُ فِي سَفَرِهِ "الْأَحْيَاءَ" الَّذِينَ هُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَمْوَاتٌ، وَلَوْ كَانُوا يُبْصِرُونَ وَيَسْمَعُونَ وَيَنْطِقُونَ وَيَمْشُونَ بَيْنَ النَّاسِ وَيَعِيشُونَ بَيْنَهُمْ. فَإِنَّهُمْ فِي حَقِيقَةِ أَمْرِهِمْ أَرْوَاحٌ تَخْفَى وَرَاءَهَا أَجْسَادٌ، بَلْ هُمْ أَمْوَاتٌ كَمَا وَصَفَهُمْ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا فِي قَوْلِهِ: **﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** (سورة الأنعام، الآية 122).

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يُنْصَحُ بِصُحْبَتِهِمْ، وَلَا بِمُرَافَقَتِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَقْطَعُونَ عَلَى السَّائِرِ طَرِيقَهُ، وَيُثْقِلُونَ سَيْرَهُ، وَيُؤَخِّرُونَ وُصُولَهُ إِلَى مَقْصِدِهِ. فَلَا أَرْضًا قَطَعُوا، وَلَا سَيْرًا أَكْمَلُوا، وَلَا غَايَةً بَلَغُوا، وَلَا هَدَفًا حَقَّقُوا، وَلَا أُمْنِيَةً حَصَّلُوا، وَلَا خَيْرًا نَالُوا، بَلْ شَرًّا أَتَوْا.

وَلِذَلِكَ قِيلَ: شَتَّانَ بَيْنَ أَقْوَامٍ مَوْتَى تَحْيَا الْقُلُوبُ بِذِكْرِهِمْ، وَبَيْنَ أَقْوَامٍ أَحْيَاءٍ تَمُوتُ الْقُلُوبُ بِمُخَالَطَتِهِمْ. وَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ:

قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَمَا مَاتَتْ فَضَائِلُهُمْ* وَعَاشَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَمْوَاتُ**

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ الْمَاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

وَلَمَّا كَانَ **عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ** (ت 181 هـ) يُطِيلُ الْجُلُوسَ فِي بَيْتِهِ وَلَا يَخْرُجُ إِلَى أَصْحَابِهِ، سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقِيلَ لَهُ: أَلَا تَسْتَوْحِشُ؟ فَقَالَ" :**كَيْفَ أَسْتَوْحِشُ وَأَنَا مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَصْحَابِهِ؟)** "يَعْنِي بِالنَّظَرِ فِي كُتُبِ السِّيَرِ وَالْحَدِيثِ.

مَعَاشِرَ الْأَحِبَّةِ وَالْإِخْوَةِ الْأَبْرَارِ الْكِرَامِ، نُعْطِي الْإِشَارَةَ الْآنَ -بِعَوْنِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا- لِانْطِلَاقِ رِحْلَتِنَا الثَّالِثَةِ الْمَيْمُونَةِ. لِتَتَحَرَّكَ سَفِينَتُنَا الْمَاخِرَةُ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ، لِنَعْبُرَ عُبَابَ بَحْرِ الدُّنْيَا الْهَائِجِ الْمَائِجِ، مُسْتَعِينِينَ بِاللهِ وَحْدَهُ، فِي الِاقْتِرَابِ مِنْ مَعَالِمِ الدَّارِ الْآخِرَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا، لِنُبْصِرَ مِنْ مَشَاهِدِهَا وَأَهْوَالِهَا وَأَحْدَاثِهَا. وَهَذَا -لَا شَكَّ- أَنَّ فِيهِ تَرْقِيقًا لِقُلُوبِنَا، وَتَلْيِينًا لَهَا، وَتَقَلُّلًا مِنَ الدُّنْيَا، وَالْإِقْبَالَ عَلَى الْآخِرَةِ.

أَسْأَلُ اللهَ جَلَّ وَعَلَا بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا اسْتُرْحِمَ بِهِ رَحِمَ، وَإِذَا اسْتُفْرِجَ بِهِ فَرَّجَ، أَنْ يَجْعَلَ رِحْلَتَنَا هَذِهِ نَافِعَةً مُفِيدَةً، نَتَزَوَّدُ مِنْ خِلَالِهَا بِالْعِلْمِ النَّافِعِ الْبَاعِثِ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، نَصْحَبُهُ مَعَنَا إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ؛ يَوْمَ لَا تَكُونُ فِيهِ الْعُمْلَةُ الْمُتَدَاوَلَةُ دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَلَا لِيرَةً وَلَا رِيَالًا، وَلَا يُورُو وَلَا دُولَارًا. إِنَّمَا الْعُمْلَةُ الْمُتَدَاوَلَةُ هِيَ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ. قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا :**﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾** سورة الشعراء، الآيتان 88-89 .وَقَالَ تَعَالَى :**﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾** سورة الزلزلة، الآيتان 7-8.

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ الْمَاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْأَفَاضِلُ، رُكَّابَ السَّفِينَةِ الْمَاخِرَةِ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ، حَانَ الْإِبْحَارُ – إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى – فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ الثالثة مِنْ مِينَاءٍ اسْمُهُ :**قَصْرُ الْأَمَلِ**.

إِنَّ الْعَبْدَ الْعَاقِلَ بِدِينِهِ، الْمُدْرِكَ لِمُهِمَّتِهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، هُوَ الَّذِي يُقَصِّرُ أَمَلَهُ فِيهَا وَلَا يَتَعَلَّقُ كَثِيرًا بِأَمَانِيِّهَا، حَيْثُ يُقْبِلُ عَلَى شَأْنِهِ فَيُصْلِحُهُ، وَيَعْمَلُ لِدُنْيَاهُ بِقَدْرِ حَاجَتِهِ إِلَيْهَا، وَيُقَدِّرُ مَقَامَهُ فِيهَا دُونَ أَنْ يُطِيلَ أَمَلَهُ بِحُبِّ الْبَقَاءِ فِيهَا وَالِانْكِبَابِ عَلَى مَلَذَّاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا، دُونَ الْتِفَاتٍ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ وَإِعْدَادِ الزَّادِ لَهَا.

وَمِنْ ضِدِّ مِينَاءِ قَصْرِ الْأَمَلِ يَأْتِي دَاءُ **طُولِ الْأَمَلِ** وَكَثْرَةِ الْأَمَانِي، وَهُوَ مَرَضٌ مُزْمِنٌ، وَدَاءٌ عُضَالٌ، وَآفَةٌ مُهْلِكَةٌ، وَشَرٌّ مُسْتَطِيرٌ. إِذَا تَمَكَّنَ مِنْ قَلْبِ الْعَبْدِ وَاسْتَوْطَنَهُ؛ أَفْسَدَهُ وَأَمْرَضَهُ وَأَهْلَكَهُ، وَجَرَّ صَاحِبَهُ إِلَى الْغَفْلَةِ الْمُطْبِقَةِ وَنِسْيَانِ الْمَوْتِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ. فَهَذَا الدَّاءُ قَدْ أَعْيَا الْحُذَّاقَ مِنَ الْأَطِبَّاءِ وَالْحُكَمَاءِ وَالْعُقَلَاءِ وَالْعُلَمَاءِ الْأَلِبَّاءِ. وَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ إِذْ قَالَ:

وَمَا أَدْرِي وَإِنْ أَمَّلْتُ عُمْرًا * لَعَلِّي حِينَ أُصْبِحُ لَسْتُ أُمْسِي**

أَلَمْ تَرَ أَنَّ كُلَّ صَبَاحِ يَوْمٍ * عُمُرُكَ فِيهِ أَنْقَصُ مِنْهُ بِالْأَمْسِ؟**

وَالنَّاسُ فِي قِصَرِ الْأَمَلِ وَطُولِهِ عَلَى مَرَاتِبَ:

- فَمِنْهُمْ مَنْ يَأْمُلُ الْبَقَاءَ فِي الدُّنْيَا وَيَشْتَهِي ذَلِكَ أَبَدًا، قَالَ تَعَالَى :

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ سورة البقرة، الآية 96.

۞ وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْمُلُ الْبَقَاءَ إِلَى زَمَنِ الْهَرَمِ وَالشَّيْخُوخَةِ، وَهُوَ أَقْصَى عُمُرِ الْإِنْسَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ سورة النحل، الآية 70.

۞ وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْتَرُّ وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ رُبَّمَا يَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ، فَيُوَسْوِسُ إِلَيْهِ إِبْلِيسُ فَيُمَنِّيهِ قَائِلًا: إِنَّكَ بَعِيدٌ عَنِ الْأَمْرَاضِ وَالْأَسْقَامِ وَالْآفَاتِ، أَنْتَ فِي صِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ، وَالْمَالُ كَثِيرٌ وَوَفِيرٌ، فَمِنْ أَيْنَ يَأْتِيكَ الْمَوْتُ؟ إِنَّهُ بَعِيدٌ جِدًّا عَنْكَ! فَعُمُرُكَ سَيَطُولُ وَيَطُولُ، فَافْعَلْ مَا تَشْتَهِي مِنْ مَلَذَّاتِ الدُّنْيَا وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى شَيْءٍ اسْمُهُ الْمَوْتُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الحجر، الآية 3). وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ سورة المرسلات، الآية 46.

اعْلَمْ -رَحِمَنِي اللهُ وَإِيَّاكُمْ- أَنَّ قِصَرَ الْأَمَلِ مَعَ حُبِّ الدُّنْيَا وَإِيثَارِهَا أَمْرٌ مُتَعَذِّرٌ وَشَيْءٌ بَعِيدُ الْمَنَالِ. كَمَا أَنَّ الِاسْتِعْدَادَ لِلْمَوْتِ وَالْعَمَلَ لِلدَّارِ الْآخِرَةِ أَمْرٌ غَيْرُ مُتَيَسِّرٍ مَعَ قَلْبٍ مَشْغُولٍ بِالدُّنْيَا. لَكِنَّ الْمُؤْمِنَ الْمُوَفَّقَ، الْبَصِيرَ بِدِينِهِ، يُمْكِنُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَهُمَا؛ فَيَجْعَلُ الدُّنْيَا مَطِيَّةً لِلْآخِرَةِ، وَيَعْمَلُ لِلْأُولَى بِقَدْرِ حَاجَتِهِ إِلَيْهَا وَبِقَدْرِ بَقَائِهِ فِيهَا، وَيَعْمَلُ لِلْآخِرَةِ بِقَدْرِ بَقَائِهِ فِيهَا وَقَدْرِ حَاجَتِهِ إِلَيْهَا.

وَأَنْتَ حِينَ تَتَأَمَّلُ حَرَكَةَ النَّاسِ فِي زَمَانِنَا، تَلْحَظُ أَنَّ أَغْلَبَهُمْ يَعْمَلُ وَيَجْتَهِدُ كَأَنَّهُ يُرِيدُ الْبَقَاءَ فِي الدُّنْيَا، لَا أَنَّهُ سَيَرْتَحِلُ مِنْهَا. قَالَ مَنْ قَالَ:

الْمَرْءُ يَأْمُلُ أَنْ يَعِيشَ ***وَطُولُ عَيْشٍ قَدْ يَضُرُّهْ

تَفْنَى بَشَاشَتُهُ وَيَبْقَى*** بَعْدَ حُلْوِ الْعَيْشِ مُرُّهْ

وَتَخُونُهُ الْأَيَّامُ حَتَّى ***لَا يَرَى شَيْئًا يَسُرُّهْ

كَمْ شَامِتٍ بِي*** إِنْ هَلَكْتُ وَقَائِلٍ: لِلهِ دَرُّهْ!

وَالْعَجِيبُ فِي أَمْرِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ كُلَّمَا طَالَ عُمُرُهُ وَاقْتَرَبَ أَجَلُهُ، زَادَ أَمَلُهُ، وَقَدْ يَسُوءُ عَمَلُهُ. وَتَزِيدُ رَغْبَتُهُ فِي تَحْصِيلِ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى ذَلِكَ. يَكْبُرُ سِنُّهُ، وَتَضْعُفُ قُوَّتُهُ، وَيَظْهَرُ وَهَنُهُ، وَلَكِنَّهُ يَبْقَى مُصِرًّا عَلَيْهَا. وَقَدْ جَاءَ فِي **صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ** مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ :(**لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا، وَطُولِ الْأَمَلِ**) .«وَالْمُرَادُ بِطُولِ الْأَمَلِ هُنَا: طُولُ الْعُمُرِ، كَمَا قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي "فَتْحِ الْبَارِي" عِنْدَ شَرْحِهِ لِهَذَا الْحَدِيثِ.

وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ شَفَقَتِهِ عَلَى أُمَّتِهِ وَحِرْصِهِ الشَّدِيدِ عَلَى تَفَقُّدِهَا أَنْ حَثَّ عَلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى الطَّاعَاتِ الْمُرْضِيَةِ؛ اغْتِنَامًا لِلْأَوْقَاتِ الْمُتَاحَةِ لِجَمْعِ الْحَسَنَاتِ وَالتَّقَلُّلِ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُفْتَنَ الْعَبْدُ وَيُشْغَلَ وَيَسْقَمَ أَوْ يَمُوتَ. فَقَدْ أَخْرَجَ **مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ** مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ : (**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**).

وَمَعْنَى **"بَادِرُوا"** أَيْ: سَابِقُوا وَسَارِعُوا. وَقَوْلُهُ **"فِتَنًا"** جَمْعُ فِتْنَةٍ، وَهِيَ الْمِحْنَةُ وَالِابْتِلَاءُ. وَالْمُرَادُ مِنَ الْحَدِيثِ: سَابِقُوا وُقُوعَ الْفِتَنِ بِالِاشْتِغَالِ بِالطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَأَيْضًا أَخْرَجَ **الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ** مِنْ حَدِيثِ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ :**"الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ"** . "وَالْهَرْجُ": هُوَ الْفِتْنَةُ وَاخْتِلَاطُ أُمُورِ النَّاسِ.

وَعَجَبًا، وَمَا لَنَا لَا نَعْجَبُ! كَيْفَ يَأْنَسُ بِالدُّنْيَا وَيَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا مَنْ تَيَقَّنَ مِنْ مُفَارَقَتِهَا وَتَرْكِهَا وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ؟ وَأَنَّهُ مُخَلِّفٌ مَا مَلَكَ فِيهَا وَجَمَعَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ لِأَهْلِهِ؟ كَيْفَ يَنْعَمُ بِالْأَمْنِ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَلَا أَمَانَ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ؟ وَهُوَ عَلَى جِسْرٍ إِلَى النَّارِ وَلَا يَدْرِي فِي أَيِّ الدَّارَيْنِ قَرَارُهُ؟ قَالَ اللهُ تَعَالَى :﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا**﴾ (سورة مريم، الآية 71). وَكَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يَبْكُونَ عِنْدَ قِرَاءَةِ هَذِهِ الْآيَةِ وَيَقُولُونَ: "عَلِمْنَا أَنَّا وَارِدُوهَا، وَلَكِنْ لَا نَدْرِي أَنَاجُونَ مِنْهَا أَمْ لَا؟."

وَيَزْدَادُ الْعَجَبُ! كَيْفَ يَغْفُلُ مَنْ لَا يُغْفَلُ عَنْهُ؟ كَيْفَ يَلْهُو وَيَلْعَبُ مَنْ تُحْصَى عَلَيْهِ أَنْفَاسُهُ، وَتُكْتَبُ عَلَيْهِ أَقْوَالُهُ وَأَفْعَالُهُ وَهُوَ لَا يَدْرِي؟ كَيْفَ يَفْرَحُ بِالدُّنْيَا وَيُسَرُّ بِهَا وَيَطُولُ أَمَلُهُ فِيهَا، مَنْ يَهْدِمُ يَوْمُهُ شَهْرَهُ، وَيَهْدِمُ شَهْرُهُ سَنَتَهُ، وَتَهْدِمُ سَنَتُهُ عُمُرَهُ؟ وَهُوَ أَجْزَاءٌ وَأَبْعَاضٌ، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ أَوْ لَيْلَةٌ ذَهَبَ بَعْضُهُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى :﴿**إِنَّمَا**

نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ (سورة مريم، الآية 84). وَقَالَ تَعَالَى :﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ سورة الإسراء، الآية 13.

وَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ:

إِلَى كَمْ أَقُولُ وَلَا أَعْمَلُ؟ * وَكَمْ ذَا أَحُومُ وَلَا أَنْزِلُ؟**

وَأَنْصَحُ نَفْسِي فَلَا تَقْبَلُ* وَأُصْدِرُ وَعْظِي فَلَا أَمْتَثِلُ**

وَكَمْ ذَا تُعَلِّلُ لِي تَوْبَتِي*بِـ"لَعَلَّ" وَ"سَوْفَ" وَكَمْ تَمْطُلُ؟**

وَكَمْ تُوعِدُ الْخُلْدَ وَتَغْفُلُ* وَالْمَوْتُ لَا يَرْحَمُ.. لَا يَغْفُلُ؟**

وَفِي كُلِّ يَوْمٍ يُنَادِي مُنَادٍ*" :الرَّحِيلَ الرَّحِيلَ".. فَمَا تَرْحَلُ؟!**

اعْلَمْ -رَعَاكَ اللهُ- أَنَّ طُولَ الْأَمَلِ وَكَثْرَةَ التَّمَنِّي تُوَلِّدُ الْكَسَلَ فِي الطَّاعَةِ، وَالتَّسْوِيفَ فِي التَّوْبَةِ، وَالرَّغْبَةَ الْمُلِحَّةَ الشَّدِيدَةَ فِي التَّشَبُّثِ بِتَلَابِيبِ الدُّنْيَا وَالتَّعَلُّقِ بِأَذْيَالِهَا، وَالتَّطَلُّعَ إِلَى أَهْوَالِهَا وَأَمَانِيِّهَا. كَمَا أَنَّ طُولَ الْأَمَلِ وَعَدَمَ قِصَرِهِ يُنْسِي صَاحِبَهُ ذِكْرَ الْمَوْتِ وَيُبْعِدُهُ عَنْهُ.

بَلْ تَرَاهُ يَخَافُ عِنْدَ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَسَمَاعِ الْحَوَادِثِ الْمُودِيَةِ بِالْأَرْوَاحِ، حَتَّى يَصِلَ بِهِ الْأَمْرُ -بَعْدَ قَسْوَةِ الْقَلْبِ وَجَفَافِهِ- إِلَى أَنَّهُ يَتَجَنَّبُ حُضُورَ الْجَنَائِزِ وَالذَّهَابَ لِتَعْزِيَةِ أَهْلِ الْمَيِّتِ؛ لِكَيْ لَا يَطْرَأَ عَلَيْهِ شَبَحُ الْمَوْتِ وَالْخُرُوجِ مِنَ الدُّنْيَا.

فَانْظُرْ إِلَى هِمَّةِ السَّلَفِ فِي قِصَرِ الْأَمَلِ! كَيْفَ عَاشُوا؟ وَكَيْفَ أَمَّلُوا؟ وَعَلَى مَاذَا مَاتُوا؟ وَكَيْفَ نَجَوْا وَهَلَكَ غَيْرُهُمْ وَمَا هَلَكُوا؟ قَالَ **الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** -رَحِمَهُ اللهُ

تَعَالَى" :-لَسْتُ أَعْجَبُ مِمَّنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ، وَلَكِنْ أَعْجَبُ مِمَّنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا."!

كَانَ الرَّجُلُ مِنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِ إِذَا لَقِيَ أَخَاهُ بَادَرَهُ بِقَوْلِهِ سَائِلًا: "كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟" فَيَرُدُّ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ: "أَصْبَحْتُ قَرِيبًا مِنْ أَجَلِي، بَعِيدًا عَنْ أَمَلِي، مُقَصِّرًا فِي عَمَلِي."

وَاحَسْرَتَاهُ وَأَسَفَاهُ عَلَى بَنِي قَوْمِي! يَسْأَلُ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ الْيَوْمَ قَائِلًا: " كَمْ رَبِحْتَ الْيَوْمَ لِتِجَارَتِكَ؟ كَمْ دَخَلَ إِلَى رَصِيدِكَ؟ هَلْ أَتْمَمْتَ دَارَكَ الَّتِي بَنَيْتَهَا؟ هَلْ غَيَّرْتَ سَيَّارَتَكَ الَّتِي كُنْتَ تَتَمَنَّاهَا؟ هَلْ تَنْوِي أَنْ تَتَزَوَّجَ أُخْرَى أَشَبَّ وَأَجْمَلَ بَدَلًا مِنْ أُمِّ أَوْلَادِكَ؟ هَلْ تُرِيدُ أَنْ تَفْتَحَ مَحَلَّاتٍ تِجَارِيَّةً فِي شَارِعٍ كَذَا؟ كَمْ وَصَلَ رَصِيدُكَ بِالْعُمْلَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ؟ هَلْ تَنْوِي الْقِيَامَ بِرِحْلَةٍ سِيَاحِيَّةٍ إِلَى أُورُوبَّا وَأَمْرِيكَا لِلتَّمَتُّعِ بِالدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا؟."

مَعْشَرَ الْأَبْنَاءِ الْأَوْفِيَاءِ وَالْإِخْوَةِ الْأَحِبَّاءِ، أَلَا هَكَذَا نَعُودُ أَدْرَاجَنَا مِنْ رِحْلَتِنَا تَائِبِينَ، عَائِدِينَ إِلَى رَبِّنَا، حَامِدِينَ شَاكِرِينَ، قَبْلَ أَنْ تَرْسُوَ سَفِينَتُنَا الْمَاخِرَةُ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ فِي مِينَاءِ "قَصْرِ الْأَمَلِ" مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ اسْتِكْمَالِ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الطَّيِّبَةِ الْمُبَارَكَةِ.

أَتَوَجَّهُ إِلَيْكُمْ مَعْشَرَ الرُّكَّابِ بِبَلَاغٍ مِنْ رُبَّانِ السَّفِينَةِ يَقُولُ فِيهِ" :اعْلَمُوا -رَعَاكُمُ اللهُ- أَنَّهُ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ مُوَحِّدٍ، لَبِيبٍ فَطِنٍ، نَاصِحٍ لِنَفْسِهِ، مُشْفِقٍ عَلَيْهَا مِنْ

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ الْمُاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ، يُرِيدُ لَهَا السَّلَامَةَ، أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِزَمَانِهِ، مُقْبِلًا عَلَى شَأْنِهِ، مُعِدًّا لِزَادِ سَفَرِه، مُمْسِكًا لِلِسَانِهِ، مُقْبِلًا عَلَى شَأْنِهِ، مُعِدًّا لِزَادِ سَفَرِهِ، مُسْتَحْضِرًا لِأَجَلِهِ، مُتَفَكِّرًا فِي عَاقِبَةِ أَمْرِهِ، مُسْتَعِدًّا لِلِقَاءِ رَبِّهِ، مُحْسِنًا لِعَمَلِهِ، مُخْلِصًا فِي عِبَادَتِهِ، رَاجِيًا عَفْوَ مَوْلَاهُ، وَخَائِفًا مِنْ عِقَابِهِ وَعَذَابِهِ."

وَهَاكُمْ مِسْكَ خِتَامِهَا، قَالَ أَحَدُهُمْ يَنْصَحُ أَخًا لَهُ:

اعْمَلْ لِمَوْتِكَ وَاعْمَلَنْ بِجِدٍّ أَيُّهَا الرَّجُلُ و*اعْلَمْ بِأَنَّكَ فِي دُنْيَاكَ مُرْتَحِلُ**

إِلَى مَتَى أَنْتَ فِي لَهْوٍ وَفِي لَعِبٍ* وَفِي اللَّذَّاتِ تَصْطَبِحُ وَتَشْتَغِلُ؟**

لَئِنْ بَكَيْتَ -أَيَا ذَا الشَّيْبِ- فِي كُرَبٍ*بَيْنَ الْأَحِبَّةِ قَدْ أَوْدَى بِكَ الْأَجَلُ**

لَمَّا رَأَوْكَ صَرِيعًا بَيْنَهُمْ فَزِعُوا ***وَوَدَّعُوكَ وَقَالُوا: قَدْ مَضَى الرَّجُلُ!

وَالْآنَ تَرْسُو سَفِينَتُنَا الْمُاخِرَةُ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ فِي مِينَاءِ "قَصْرِ الْأَمَلِ"؛ إِعْلَانًا عَنْ نِهَايَةِ رِحْلَتِنَا الثالثة.

فَاقْصُرُوا الْأَمَلَ، وَأَصْلِحُوا الْعَمَلَ، وَبَيِّنُوا الْأَجَلَ، وَاطْرَحُوا الْحِيَلَ، وَتَجَنَّبُوا الزَّلَلَ، وَدَعُوا عَنْكُمُ التَّسْوِيفَ وَالْعِلَلَ. حَافِظُوا عَلَى أَوْقَاتِكُمْ وَاعْمُرُوهَا بِالطَّاعَاتِ وَالصَّالِحَاتِ، انْتَبِهُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ وَاجْتَهِدُوا فِي الْفَكَاكِ مِنَ النَّارِ، وَنَيْلِ رِضَا الْجَبَّارِ، وَالسَّلَامَةِ مِنْ سُوءِ الدَّارِ، فَبِئْسَ الْقَرَارُ.

شَكَرَ اللهُ لَكُمْ حِرْصَكُمْ، وَتَقَبَّلَ اللهُ طَاعَاتِكُمْ، وَنَفَعَنِي اللهُ وَإِيَّاكُمْ بِمَا نَسْمَعُ. زَادَكُمُ اللهُ تَعَالَى حِرْصًا وَتَوْفِيقًا.

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ المُاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

نَسْأَلُ اللهَ جَلَّ وَعَلَا بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْمُثْلَى، أَنْ يُعَجِّلَ بِشِفَاءِ مَرْضَانَا، وَأَنْ يَرْحَمَ مَوْتَانَا. نَسْأَلُهُ الصَّلَاحَ فِي الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ، وَالْبَرَكَةَ فِي الْجَسَدِ وَالْوَقْتِ وَالْمَالِ. نَسْأَلُهُ حُسْنَ الْخَاتِمَةِ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ.

وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ. وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الموقع الرسمي للشيخ:
أَبِي قُتَيْبَةَ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ الطَّاهِرِ شَابِي
SUBSCRIBE
LIKE
SHARE